علمُ اللغةِ (البِنيَةُ التّواصليَّةُ، وتَعارضُ الوَظائفِ)

روزان رفيق أحمد
جامعة جرمو- كلية التربية
Rozhan.ahmed@chu.edu.iq

المُستَخلص:

في ظلِّ مُضاعفةِ الباحثينِ لجهودِهم في ميدانِ علمِ اللغةِ الاجتماعيِّ، نَقفُ عندَ كلِّ دراسةٍ آملينَ أن تَفِيَ لَنَا بالقدرِ المُرادِ مِن الإلمامِ بِالوظائفِ الّتي تُؤدِّيهَا اللغةُ بِجانبِ الوظيفةِ الاجتماعيّةِ، غيرَ أنَّ المبذولَ مِن الجهودِ – علَى كثافتِه – يَقِفُ عاثِرًا دونَ البلوغِ إلى مُعالجةٍ مُحكَمةٍ لَم يَزل يحتاجُ إلَى تَقويمٍ ، فهو يَتَّسِمُ بقُصورٍ منهجيٍّ؛ إذ يَلْفتُ النَّظرَ إلى اللغةِ في خِضمِّ كونِها مِعراجاً للتَّواصلِ الإنسانيِّ، دونَ أنْ يَعْبُرَ هذا السَّقفَ إلى أغوارِ الوظائفِ الأخرى المُبْهَمةِ والمَناطَةِ باللغةِ في النَّسَقِ البشريِّ. والأَدهَى، هو إغفالُ الحديثِ عن طبيعةِ العلاقةِ بينَ هذه الوظائفِ؛ أهيَ وشائجُ تَكامُلٍ أمْ حواجزُ تَعارُضٍ؟.غيرَ أنَّ المبذولَ مِن الجهودِ – علَى كثافتِه –بحاجةٍ إلَى التَقويم، فهو لَم يزل ينظرُ إلَى اللُّغةِ باعتبارِها إطارًا للتّواصلِ الإنسانيِّ دونَ أن يتخطَّى هذه الوظيفةَ إلَى غيرِها مِن الوظائفِ الأُخرَى المَنوطةِ باللُّغةِ، ناهِيكَ عن حديثِه عَن مدَى التّوافقِ مِن التّعارضِ الذي عساهُ يقفُ حجرَ عثرةٍ دونَ بلوغِ المُرادِ مِن مُعالجةِ تعدُّدِ وظائفِ اللغةِ.

وتسعَى هذه الدّراسةُ إلَى تسليطِ الضّوءِ علَى بعضِ الوظائفِ الحَيويّةِ الّتي هِي مِن صُلبِ الاستعمالِ الإنسانيِّ للغةِ، وإسهاماتِ بعضِ النّظريّاتِ اللُّغويّةِ الحديثةِ في تزويدِنا بِمفهومٍ جديدٍ عن هذه الوظائفِ، وكيفَ أنَّها – مهما ظهرَ لَنَا تَعارُضُها – تتكاملُ فيمَا بينَها، فكُلُّ وظيفةٍ تَشدُّ أزرَ الأُخرى تَبلُغَ باللغةِ مَهمَتَها العُظمَى، ألا وهيَ إقامةُ جسرِ الاتِّصالِ الإنسانيِّ العميقِ، ليَكونَ اللِّسانُ بذلكَ، لا مُجردَ ناقلٍ للرسائلِ، بل صانِعاً للمعنى ومُشيِّداً للوجود.

الكلمات المفتاحية:

علم اللغة الإجتماعي، وظائف اللغة، ميتافيزيقا اللغة ، النظريات اللغوية، البنية التواصليّة.

Linguistics
(communicative structure, opposition of functions)

Rozhan rafiq ahmed
Charmo University - Faculty of Education

Abstract:

In light of researchers' intensified efforts in the field of sociolinguistics, we examine each study, hoping it will sufficiently equip us with the desired understanding of the functions that language performs alongside its social function. However, the efforts expended despite their abundance remain insufficient,

stumbling short of achieving a rigorous analysis that still requires evaluation. This work suffers from a methodological deficiency; it limits its focus to language as merely a vehicle for human communication, without venturing beyond this ceiling into the depths of other latent functions assigned to language within the human system.

Even more crucial is the omission of any discussion regarding the nature of the relationship between these functions: are they bonds of integration or barriers of contradiction? The efforts exerted still view language primarily as a framework for human communication, failing to transcend this function to explore its other inherent roles, let alone address the degree of concordance versus conflict that might impede the full realization of a rigorous analysis of language's multiple functions.

This study seeks to shed light on some of the vital functions that are at the core of human language use, and the contributions of some modern linguistic theories in providing us with a new concept of these functions, and how they no matter how contradictory they may appear are ultimately integrative. Each function supports the others to enable language to fulfill its ultimate mission: establishing a deep bridge of human connection. Thus, language becomes not merely a transmitter of messages, but a maker of meaning and a builder of existence.

Keywords:

Sociolinguistics, Functions of Language, Metaphysics of Language, Linguistic Theories, Communicative Structure.

المُقدّمةُ

تُشكِّلُ اللغـةُ ظـاهرةً إنسـانيّةً شَـديدةَ التّعقيدِ، فمـعَ اتّفـاقِ العلمـاءِ علَـى شِـدّةِ حاجـةِ البَشرِ جميعًـا إلَـى مَـا يتوصّـلُونَ بِـه إلَـى الّتفـاهُمِ والتّواصـلِ الاجتمـاعيِّ فيمَـا بينَـهم، لَـم يزالـوا يتطلَّعون نحـوَ استجلاءِ أُفقِ العلاقةِ بينَ اللغةِ والقيمةِ التّواصليّةِ الّتي تربطُ بينَها - بِوصفِهَا أداةً فاعلةً مِن أدوات الاتّصالِ البشريِّ - وبينَ ما يُمكنُ أن تُؤدِّيه اللُّغةُ مِن وظائفَ أُخرَى لا تقلُّ في جوهرِها عَن تلكَ القيمـةِ التّواصـليّةِ الّتـي

تُؤطِّرُ للعلاقةِ بينَ بَنِي البشرِ وبعضِهم بِصِلاتٍ راسخةٍ تستهدفُ تزويدَ الإنسانَ بالرّوابطِ الفِكريَّةِ الّتي تُعينُه عَلى تحديدِ أيدلوجيّاتِه ومدَى ما يُمكنُ أن تُؤثِّرَ فيهِ مِن أيدلوجيّاتِ الآخرينَ في مُحيطِه.

ولأنّ اللغةَ أداةٌ تحملُ في طيّاتِها عددًا مِن الوظائفِ الإيجابيّةِ الّتي تُمثِّلُ نزعةً غريزيّةً لدَى الإنسانِ، اعتنَى العُلماءُ بِهَا ووفَّروا الجهودَ لِدراستِها؛ رغبةً في الإلمامِ بمجموعِ تلكَ الوظائفِ الحيويّةِ التي تنهضُ بِعبئِها، وفي إطارِ العملِ علَى فهمِ وظائفِها نُدركُ أنَّ هذه الوظائفَ ليست حصرًا في جانبِ التّواصلِ الإنسانيِّ الفاعلِ وحسبُ، وليستْ مُرادًا بِهَا مُجرّدُ الإفصاحِ عَن الذّاتِ أو مُعالجةِ المعانِي الدّاخليّةِ القائمةِ في النّفسِ، فَإنَّنا نَقِفُ علَى تعدُّديّةٍ ملحوظةٍ في هذه الوظائفِ، وجميعُها تقومُ بِدَورٍ مفصليٍّ في المُكوِّنِ العامِّ لِصرحِ اللغةِ الإنسانيّةِ، ومعَ تعدُّدِها لا نكادُ نجِدُ تعارضًا بينَ كلِّ وظيفةٍ منهَا والأُخرَى.

وانطلاقًا مِن القيمةِ الأدائيّةِ الّتي تُؤدِّيهَا اللغةُ الإنسانيّةُ في مَعرضِ التّواصلِ والتّأثيرِ النّفسيِّ، عَرَض لِي تسليطُ الضّوءِ هُنا فِي الورقةِ البَحثيّةِ علَى بعضِ وظائفِها الحَيويّةِ؛ بِغرضِ كشفِ اللِّثامِ عَن بعضِ النّظريّاتِ الّتي تناولَت وظائفَ اللغةِ التّأثيريّةِ في جَانبِها النّفسيِّ، والاجتماعيِّ، والمِيتافزيقيِّ، ومدَى ما تعكسُه الآراءُ الّتي تضمَّنتْهَا تلكَ النّظريّاتُ اللغويّةُ مِن تَأثيراتٍ علَى وظائفِ اللُّغةِ، علَى أن تكونَ الدّراسةُ في مُقدِّمةٍ، وثلاثةِ محاورَ، وخاتمةٍ، علَى نَحوِ مَا يلِي:

المِحورُ الأوَّلُ: اللُّغةُ (المَفاهيمُ، والوظائفُ).

المِحورُ الثّاني: اللُّغةُ ظَاهرةٌ إنسانيّةٌ (اجتماعيَّةُ اللُّغةِ، وعلاقَتُها بِالتّواصلِ).

المِحورُ الثّالِثُ: الوظائفُ المِيتافزيقيّةُ للُّغةِ.

أهميّةُ الدّراسةِ:

تَنبثقُ العِنايةُ بِتلكَ الدّراسةِ مِن الأهميّةِ الّتي يُولِيهَا العُلماءُ للغةِ البَشريّةِ، فاللغةُ لم تزل الأداةَ الوحيدةَ الّتي يُخاطبُ بِهَا الإنسانُ العقولَ، وتُخاطبُه بِهَا العقولُ، وقد تجلّت أهميةُ الموضوعِ في:

- حاجةِ المكتبةِ العربيّةِ إلَى دراساتٍ شاملةٍ عن وظائفِ اللغةِ، وحقيقةِ ارتباطِ هذه الوظائفِ بعمليّة الإفهامِ والتّفهيمِ.

- تعزيزِ القيمِ التّواصليّةِ المُنبثقةِ عَن اللُّغةِ، بِوظائفِها الطّبيعيّةِ وما وراءَ الطبيعيّةِ الّتي نصَّت عليهَا الدّراساتُ الحديثةُ.

إشكاليّةُ الدّراسةِ:

وتتطلَّعُ هذه الدّراسةُ إلَى وضعِ حدودٍ لمَا فاتَ البَحثَ في ميدانِها مِن مفاهيمَ تتّصلُ بمجموعِ الوظائفِ الّتي أنيطتْ بِهَا نفسيًّا واجتماعيًا وتأثيريًّا؛ للإجابةِ علَى تساؤلاتٍ طالمَا أنتجَ البحثُ اللغويُّ الحديثُ عنَاوينَ في سبيلِ الإجابةِ عنهَا، انطلاقًا مِن أنَّ الإشكالَ الأبرزَ الّذي يُعالجُه البَحثُ يَتمثَّلُ في:

- افتقادُ الدّراساتِ اللّسانيّةِ الحديثةِ، لبحثٍ جامعٍ يتناولُ تحتَهُ وظائفَ اللُّغةِ بِصُورةٍ مُ مبسّطةٍ شاملةٍ.

- عدمُ وجودِ دراسةٍ مُوازنةٍ بينَ النّظريّاتِ اللُّغويّةِ الحديثةِ، تعملُ علَى مُقارنةِ وظائفِ اللُّغةِ بِبَعضِها، واختيارِ الأنسبِ منها لِميدانِ دراسةِ اللغةِ التّواصليّةِ

- فصلُ الدّراساتِ اللّسانيّةِ الحديثةِ بينَ لُغةِ التّواصلِ الإنسانيِّ، ونَماذجِ الأبحاثِ المُقدّمةِ لخدمةِ هذه اللُّغةِ.

أهدافُ البَحثِ:

يستهدفُ هذا البَحثُ ضَمَّ شتاتِ الدّراساتِ وجمعُ شَعثِ الأبحاثِ الّتي تناولت وظائفَ اللُّغةِ ونظريّاتِها، وفقَ معاييرِ قياسٍ جدَوى هذه النّظريّاتِ علَى ذلكَ النّحوِ:

- تعيينِ المَفاهيمِ ذاتِ الاتّصالِ المُباشرِ بِوظائفِ اللغةِ المُتعدّدةِ

- وضعِ إطارٍ عامٍّ لِأبرزِ نَظريّاتِ اللُّغةِ الحديثةِ، وما تعكِسُه تلكَ النّظريّاتُ مِن فوائدَ منهجيّةٍ يَتَعيَّنُ علَى أثَرِها جدوَى العملِ بِهَا.

- إثراءُ المَكتبةِ العربيَّةِ ببحثٍ تتكاملُ فيهِ النظريَّاتُ اللسانيَّةُ عن وظائفِ اللُّغةِ، معَ خصائصِ كلِّ نظريّةٍ منهَا.

منهجُ البَحثِ:

ولأنَّ الدراسةَ قد استوعبت عددًا مِن النّظريّاتِ؛ بغرضِ الإبانةِ عَن مُنجَزِ كلِّ نظريّةٍ، ومَا انطوت عليهِ مِن سِماتٍ وخصائصَ، كانَ المنهجُ اللُّغويُ الوَصفيُّ المُقارِنُ أشدَّ مُناسبةً وانسجامًا معَ البَحثِ.

مَصادرُ الدّراسةِ:

وقد اعتمدَ البحثُ علَى عددٍ مِن المصادرِ والمراجعِ الّتي لَها بِالدّرسِ اللغويِّ شديدُ اتّصالٍ، ومِن نظائرِ تلكَ المصادرِ:

- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الحديث، القاهرة، ط١
- الخطابة، أرسطو طاليس، تح: د. عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١
- إحكام في أصول الأحكام، سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، نشرة المكتبة الخديوية، القاهرة، ط١
- علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، تر: محمود عياد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠
- علم اللغة الاجتماعي عند العرب، د. هادي نهر، نشرة الجامعة المستنصرية، ط١
- الوظائف التداولية للغة العربية، د. أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١
- إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط١

- ميتافيزيقا اللغة، د. لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٧

المِحورُ الأوَّلُ: اللُّغةُ (المَفاهيمُ، والوظائفُ)

ليسَ مُستهدفًا مِن إيرادِ التّعاريفِ الّتي لهَا تعلُّقٌ باللغةِ وعلومِها ووظائفِها، مُجرّدُ الوقوفِ علَى هذه التّعريفاتِ، فهي مبثوثةٌ في كُتبِ العلماءِ مِن أهلِ العربيّةِ والأصوليينَ والفُقهاءِ وغيرِهم، ولكنَّ داعيًا ألحَّ في التّعريفِ بمفهومِ اللغةِ وأبرزِ ما تؤدّيه مِن وظائفَ لا يُمكنُ أن تقومَ الدّلالةُ المقصودةُ للمُخاطبِ إلَّا بِها، يتجلَّى ذلك الدّاعي فيما أنتجَه الصّراعُ بينَ العُلماءِ حولَ قضيّةِ التّعريفِ باللُّغةِ وماهيتِها، وما تؤدِّيه مِن وظائفَ إجرائيّةٍ في الاستدلالِ علَى مُرادِ المُتكلِّمِ بِها.

وإنَّ أوَّلَ ما ينبغي التعرُّضُ لهُ من مفاهيمَ، اصطلاحُ القُدامَى على حَدِّ اللغةِ، فقد عرَّفها ابنُ جنِّي بـ"أنها أصواتٌ يُعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم"**[١: ج١، ص٧٦]** ففي هذا التّعريفِ مُتضمَّناتٌ يعكسُ تفصيلُ القولِ فيهَا معرفةً ودرايةً واسعةً لابنِ جنِّي بعلمِ أصواتِ العربيّةِ، وحقيقةِ اجتماعيّةِ اللغةِ، وإحاطتِه بقضَايا الخِطابِ، وإدراكِه لِمَا يَتمُّ بِه المعنَى وتحصلُ بِه الفائدةُ مِن اللُّغةِ المنطوقةِ، وقد أشارَ إلى شموليةِ هذا التعريفِ العالمُ اللُّغويُّ د. محمد حسن جبل، فقالَ: "التَّعريفُ الصطلاحيُّ للغةِ ما قرَّره أبو الفتح عثمان ابن جني، وهو تعريفٌ وافٍ"**[٢: ص٩]**، وتلك المعارفُ الّتي تحصَّلت لهُ والّتي يُمكنُ الاهتداءُ إلَى معرفتِه بِها بالنّظرِ الآنِي إلّا هذا الحدِّ الّذي وضعَهُ للغةِ، هي نفسُها مَا توصَّل إلَيهَا الدّرسُ اللسانيُّ في حدِّ وظائفِ اللغةِ.

وقد حدَّ هاليداي مفهومَ وظائفِ اللغةِ "في أبسطِ معانيها، أن تكونَ مرادفةً لكلمةِ استعمالٍ، لذلك حينَ نتحدَّث عن وظائفِ اللغةِ فنحنُ لا نعني إنَّ الطريقةَ التي يستعملُ الناسُ لغتَهم أو لُغاتِهم...، وإذا عبَّرنا عن ذلك بصورةٍ عامَّةٍ، قُلنا إنَّ الناسَ يُنجزونَ بلغتِهم أشياءَ كثيرةً"**[٣: عد:٥٤، ص١٠٥]**، وبالنَّظرِ إلى الرُّؤيةِ المفهوميةِ لوظائفِ اللغةِ عندَ هاليداي، نجدُ أنَّهُ اعتمدَ في صياغةِ المفهومِ على العمومِ والشموليةِ التي تضمُّ تحتَ تلك الوظائفِ كلَّ ما يحتاجُ الإنسانُ إلى توظيفِ اللغةِ في إنجازِه والتعبيرِ عنهُ.

في الوقتِ الذي يسترُعلينا فيهِ فهمُ ابنِ جنِّي لمفهومِ وظائفِ اللغةِ من غيرِ أن يحدَّ لهُ مفهومًا، فهو يضعُ لنا حدًّا للغةِ، ويضعُ ضِمنَ هذا الحدِّ مجموعَ ما تؤدِّه اللغةُ من وظائفَ، دونَ النصِّ على أنَّ ما وضعَه من جملةِ الوظائفِ، وقد قسَّم هاليداي اللغةَ باعتبارِ ما تُنتِجُه في نفسِ المخاطبِ من تأثيراتٍ إلى لغةٍ تعبيريةٍ، ولغةٍ توعيَّةٍ، ولغةٍ تمثيليَّةٍ، فاللغةُ التعبيريَّةُ هي التي تتَّجه إلى النَّفسِ، واللغةُ التَّوعيةُ هي التي تتَّجهُ إلى المخاطبِ، واللغةُ التَّمثيليَّةُ هي التي تتَّجهُ إلى سائرِ الموجوداتِ، وقد نسبَ هذا التَّقسيمَ إلى عالمِ النَّفسِ النمساويِّ (كارل بيولر)، فالوظائفُ اللغويةُ بحسبِ هذا الرَّأي تأخذُ أقسمَها

الثلاثةَ بحسبِ الفردِ، على أساسٍ من تصوُّرِ (بيولر) الذي يُميزُ بينَ المتكلِّمِ والمخاطبِ والغائبِ**[٣: ص١٠٥]**.

وفي الصّددِ ذاتِه نرَى عِنايةً كبيرةً مِن قِبلِ الأُصوليينَ باللغةِ وماهيتِها، والوظائفِ المنوطِ بِها أداؤُها، أمَّا من حيثُ الماهيةُ، فيقولُ الآمدي: "وهو مقدورٌ عليهِ في كلِّ الأوقاتِ من غيرِ مَشقَّةٍ ولا نصبٍ، وذلك هو ما يتركَّبُ من المقاطعِ الصَّوتيَّةِ التي خُصَّ بِها نوعُ الإنسانِ دونَ سائرِ أنواعِ الحيوانِ، عنايةً من اللهِ تعالَى"**[٤: ج١، ص١٦]**، كما أنَّه لم يُغفلِ الحديثَ عن المعنَى الذي يوجِّه بهِ عبارتَه عن عنايةِ اللهِ بالبشرِ، والتي من مظاهرِها أن جعلَ اللغةَ وسيلةً لا غايةً في ذاتِها.

وفي مطالعتِنا بالوظائفِ التي جلَّت عن عنايةِ اللهِ بالجِنسِ البشريِّ، يقولُ: "ولمَّا كانَ هذا المقصودُ لا يتمُّ دونَ الاطلاعِ على المقدِّماتِ النظريةِ المستندةِ إلى القضايا الضروريةِ، المتوسَلِ بها إلى مطلوباتِه وتحقيقِ ما جاءَ بهِ، وكانَ كلُّ واحدٍ لا يستقلُّ بتحصيلِ معارفِه بنفسِه وحدَه دونَ مُعينٍ أو مُساعدٍ له من نوعِه، دعت الحاجةُ إلى نصبِ دلائلَ يتوصَّلُ بها كلُّ واحدٍ إلى معرفةِ ما في ضميرِ الآخرِ من المعلوماتِ المعينةِ في تحقيقِ غرضِه"**[٤: ج١، ص١٦]**، فبتحقيقِ النّظرِ في هذا النصِّ نجدُ أنَّ الآمدي قد فطنَ لِمَا لَم يفطن لهُ علماءُ اللغةِ الحداثيينَ في جانبِ الوظائفِ الّتي نُتِجُها اللغةُ، ومِن ذلكَ:

أوّلًا: ربطُه للمقاصدِ الضّروريّةُ الّتي لا غِنَى للإنسانِ عن تحصيلِها في حياتِه، باللُّغةِ، فممطالبُ الإنسانِ المُشتركةُ الّتي لا يُمكنُ إنجازُها إلّا بتواصلِه معَ غيرِه تحتاجُ إلَى اللغةِ لتحقيقِها، ويُفهَمُ ّلكَ مِن قولِه: "ولمَّا كانَ هذا المقصودُ لا يتمُّ دونَ الاطلاعِ على المقدِّماتِ النظريةِ المستندةِ إلى القضايا الضروريةِ".

ثانيًا: نظرتُه إلَى اللُّغةِ باعتبارِها ظاهرةً اجتماعيّةً لا يتحقَقُ التّواصلُ بِهَا بينَ الإنسانِ وغيرِه إلَّا بها خاصَّةً، حتّى معَ توفُّرِ مَا يقومُ مقامَها مِن الحركةِ "في اللغةِ غيرِ اللفظيةِ المُعتمدةِ على دلالةِ الالتزامِ"**[٤: ج١، ص١٧]**.

ثالثًا: تأكيدُه علَى وجودِ الدّافعيّةِ للتّواصلِ باللُّغةِ، فهو لَم يقتصرِ عَن بيانِ بعضِ الوظائفِ الّتي ترتكزُ عليَها الاستعمالاتُ البشريّةُ للغةِ المنطوقةِ، بل يمزجُ بينَها وبينَ الدّافعيّةِ، فيقولُ: "وكانَ كلُّ واحدٍ لا يستقلُّ بتحصيلِ معارفِه بنفسِه وحدَه دونَ مُعينٍ أو مُساعدٍ له من نوعِه، دعت الحاجةُ إلى نصبِ دلائلَ يتوصَّلُ بها كلُّ واحدٍ إلى معرفةِ ما في ضميرِ الآخرِ من المعلوماتِ المعينةِ في تحقيقِ غرضِه"، فُمراعاةُ عدمِ استقلالِ الإنسانِ بنفسِه في مُجتمعِه تُعدُّ واحدةً مِن بواعثِ الحاجةِ للتّواصلِ باللُّغةِ لَديه.

والموافقُ للمنطقِ أنَّ وظائفَ اللغةِ لا تختلفُ باختلافِ اللغاتِ، بل هي واحدةٌ معَ ما بينَ البشرِ وبعضِهم من التَّباينِ في النُّطقِ اللهجيِّ في اللغةِ الواحدةِ، أو الاختلافِ الجذريِّ في أصلِ اللغةِ؛ لأنَّ المعاني الموضوعةَ بإزاءِ الألفاظِ التي هي قوامُ اللغةِ تكعسُ التصوُّرَ الذهنيَّ لها لدَى المتكلِّمينَ بتلك اللغةِ**[٥: ج١،ص٤٢]**، وذلك يستوجبُ توافقَ كلًّا من المتكلِّم والمُخاطبِ على لُغةِ حديثٍ واحدةٍ، أمَّا

الوظائفُ فليست كذلك، بل هي معيارٌ ثابتٌ لقياسِ طريقةِ ونسبةِ وحالةِ التّواصلِ الإنسانيِّ، ولذا يأخذُ أبو حيَّان على مَن يُجيزُ تركيبًا من غيرِ العربيَّةِ في الاستعمالِ العربيِّ من غيرِ أن يجدَ لهُ نظائرَ**[٥: ج١،ص٤٣]**، وذلك من الوظائفِ التركيبيةِ للغةِ، وعدمُ إجازتِه استعمالَ تراكيبَ من خارجِ العربيَّةِ لم يرد لها نظيرٌ في العربيةِ عاكسٌ لاتِّحادِ وظائفِ اللُّغةِ معَ اختلافِ نُطقِها.

المحورُ الثّاني: اللُّغةُ ظَاهرةٌ إنسانيّةٌ (اجتماعيَّةُ اللُّغةِ، وعلاقَتُها بالتّواصلِ)

مِمّا لا شكَّ فيهِ أنَّ اللغةَ تُعدُّ ظاهرةً إنسانيَّةً تفشَّت في الجنسِ البَشريِّ كُلِّه، إلَّا عندَ مَن لَم يَقدِرْ عليهَا؛ لسببٍ مِن الأسبابِ العرَضيّةِ أو المرضيّةِ، ويُحيلُنا هذا علَى الحُكمِ بأنَّ اللغةَ – علَى اختلافِ العُلماءِ في مسألَةِ أهِيَ وضعيّةٌ أو توقِيفيّةٌ؟ - تنبثقُ عَن أصلَينِ: الأوَّلِ: أنَّها بِطبيعتِها اجتماعيّةٌ تَصِلُ بينَ أفرادِ مُجتمعِ النّاطِقِينَ بِها وبعضِهم، والثّاني: أنَّ وظيفتَها الأصيلةُ هي التّواصلُ، ومَا عدَا تلكَ الوظيفةَ مُترتِّبٌ عَلى هذا الأصلِ وفرعٌ عليهِ.

هذا، وقد التفتَ قديمًا أرسطوطالِيس إلَى الوظيفةِ الاجتماعِيّةِ لِلُّغةِ، في مُعالجتِه لجانبٍ من تقسيماتِ الخطابةِ، فقولُه: "والخطابةُ من جهةٍ أُخرَى تَتمُّ بثلاثةٍ: بِقائلٍ، وقولٍ، ومُخاطبٍ"**[٦: ص٥٥]**، دالٌّ على أنَّ للخُطبةِ توجيهًا يعملُ من خلالِه القائلُ إلى مقولٍ محددٍ يُناسبُ مُخاطبًا مُعيَّنًا، وذلك ربطٌ ظاهرٌ بينَ اللُّغةِ التي هي الرُّكنُ الثَّاني في ذلك التَّقسيمِ، والقائلِ، وهو الرُّكنُ الأوَّلُ منهُ، والمخاطبِ الذي هو ركنُ التَّقسيمِ الثَّالثِ، وتلك ملاحظةٌ بالغةُ الأهميَّةِ تنمُّ عن إدراكِ أرسطو للعلاقةِ الاجتماعيةِ بينَ اللغةِ وطرفَي الخطابِ الآخرَينِ: (القائلِ، والمخاطبِ)، وبينَ اللغةِ ونفسِها من جانبٍ آخرَ؛ إذ لا بُدَّ في عمليةِ إنتاجِ الخطابِ ووصفِه بالاجتماعيةِ أن يقومَ على ركيزتَينِ، الأولَى أن يكونَ مُتعارفًا بينَ القائلِ والمُخاطبِ؛ إذ الجهلُ بهِ منافٍ لهذه العلاقةِ الاجتماعيةِ، والثَّانيةُ: وجودُ العلاقةِ بينَ طرفَي الخطابِ، والتي تحملُ القائلَ على التوجُّهِ للمقولِ له.

وبلفتُنا إلى ضرورةِ وجودِ علاقةٍ بينَ كلٍّ من القائلِ والمقولِ لهُ لوصفِ لُغةِ الخطابِ بالاجتماعيةِ، قول أرسطو: "الخطابةُ قد تُشاكلُ الجدلَ باعتبارٍ، وتُشاكلُه باعتبارٍ، أمَّا المُشاركةُ فَمِن جهتَينِ: إحداهُما في القصدِ، والثَّانيةُ في الموضوعِ"**[٦: ص٦]**، وقد فسَّر المشاركةَ بالقصدِ بَرَومِ كلٍّ من "المتخاصِمينِ الغلبةَ على صاحبِه"**[٦: ص٦]**، ولولا العلاقةُ الاجتماعيَّةُ بينَ طرفي الخطابِ ما رامَ أحدُهما مغالبةَ صاحبِه، حتَّى معَ كونِ تلك العلاقةِ عكسيةً شكَّلتْها الخصومةُ.

ومن مُنطلقِ تلك العلاقةِ التي تربطُ بينَ اللغةِ والمجتمعِ، والَّتي أثبتتْها الدِّراساتُ والبُحوثُ القديمةُ والحديثةُ، يُعدُّ عبثًا غيرَ مقبولٍ، فـ"الحقُّ أنَّ أيَّةَ محاولةٍ لتفسيرِ الظَّواهرِ اللغويةِ دونَ الرجوعِ إلى المجتمعِ، وذلك مما قامت به المدرسةُ التوليديةُ التَّحويليةُ، إنَّما هي محاولةٌ عبثيةٌ

تنطوي على مثاليةٍ مُتطرفةٍ"**[٧: ص٢-٣]**، ويؤكِّدُ على حقيقةِ اجتماعيَّةِ اللغةِ ما أثارَه ابنُ جنِّي من آراءٍ حولَ التَّقارضِ بينَ اللُّغاتِ والنَّقلِ من غيرِ العربيَّةِ إلى العربيَّةِ، فيُحيلُنا بقولِه: "إذا قلتَ: "طابَ الخَشْكَنَانُ" فهذا من كلامِ العربِ، لأنَّك بإعرابِك إيَّاه قد أدخلته في كلامِ العرب، ويؤكِّد هذا عندَك أنَّ ما أُعربَ من أجناسِ الأعجميَّةِ قد أجرتْه العربُ مجرَى أصولِ كلامِها"**[١: ج١، ص٤٣١]**، وذلكَ أحدُ مظاهرِ المُثاقفةِ اللُّغويَّةِ، وأحدُ صورِ الطبيعةِ الاجتماعيةِ التي تمتَّعت بِها اللغةُ، فهي وسيلةٌ للتَّواصلِ بينَ أبنائِها عبرَ ما أدرجَه الدكتور قطب، ضمنَ ما أطلقَ عليهِ "اللغةَ والتواصلَ"**[٨: ص٧٤]**، لعلاقةٍ بينَ اللغةِ والثَّقافةِ المجتمعيَّةِ.

ذلك هو الأصلُ الذي يجبُ البِناءُ عليهِ؛ لاعتمادِه مِن قِبَلِ أغلبِ لدّراساتِ والبُحوثِ حديثِها وقديمِها، فاللُّغةُ عادةٌ إنسانيّةٌ، وظاهرةٌ بشريّةٌ ترتكزُ في العملِ بِهَا علَى وظيفةٍ أساسيَّةٍ تستهدفُ التَّواصلَ الاجتماعيَّ، وتدعمُ وظائفَ أُخرَى تمامًا بِتمامٍ معَ الوظيفةِ التّواصليّةِ الاجتماعيّةِ، يأتي الحديثُ عليها في التَّالي، ويؤيِّد هذا المنطلقَ قولُ هندسون: "لا نستطيعُ أن نُسلِّمَ جدلًا بوجودِ فكرةِ اللغةِ (س) مثلًا، حيثُ إنَّ هذه الفكرةَ في حدِّ ذاتِها فكرةٌ اجتماعيةٌ"**[٩: ص١٥]**، فهذا النصُّ يصدرُ عن إيمانٍ راسخٍ بحتميَّةِ وجودِ علاقةٍ قديمةٍ بينَ اللُّغةِ ومُجتمعِها.

وقد انطلقَ الدكتور عبد الهادي الشهري، في تحديدِ نوعِ المعيارِ الذي يُنتجُ المتكلِّمُ خطابَه متأثِّرًا بِه، من العلاقةِ الاجتماعيَّةِ للغةِ، "فهناكَ - مثلًا – معيارُ العلاقةِ التَّخاطبيَّةِ بينَ أطرافِ لخطابِ"**[١٠: ص١١]**، والتي قامَ علَى إثرِها بتحديدِ الإستراتيجةِ الأكثرِ مناسبةً لهذه العلاقةِ بينَ كلٍّ من المخاطبِ والمُتكلِّمِ، واللغةِ التي "تتراوحُ قُربًا وبُعدًا، وعلوًّا ودُنوًّا"**[١٠: ص١١]**، ويُلمَحُ أثرُها في النَتائجِ التي يخلصُ إليها ذلك الخِطابُ، ويُشيرُ كلامُ الدكتور الشهري إلى أنَّ شبهَ اتِّفاقٍ بينَ اللسانيينَ على تعدُّدِ وظائفِ اللغةِ، إلى جانبِ اتِّفاقِهم على أنَّ كلَّ تلك الوظائفِ لا يُمكنُ تَخيُّلُها "خاراجَ سياقِ الاتِّصالِ"**[١٠: ص١١]**، والاتِّصالُ أساسُ هذه اجتماعيةِ اللغةِ.

وانطلاقًا مِن هذا الأصلِ الذي ينبنِي عليهِ الحُكمُ بِوجودِ علاقةٍ بارزةٍ بينَ اللغةِ والمُجتمعِ، وعلاقةٍ أُخرَى بينَ أفرادِ هذا المُجتمعِ وبعضِهم تُنتِجُها تلكَ اللُّغةُ، تتحدَّدُ الوظائفُ الفرعيّةُ الّتي تَنضمُّ بِدَورِها إلَى العلاقةِ الأُمِّ (الاجتماعيّةِ)، وقد برزَ في ميدانِ الدرسِ اللسانيِّ المُعاصرِ واحدٌ من اللسانيينَ المُحدثِين، وهو (جاكبسون Jacobson)، دعَا إلى تعيينِ عددٍ من الوظائفِ اللُّغويةِ التي يُعوَّلُ عليها في الاستعالِ الإنسانيِّ لها، حيثُ "ارتكزَ في تحديدِ تلك الوظائفِ على العناصرِ المُكوِّنةِ لعمليَّةِ الاتِّصالِ"**[١٠: ص١٢]** أيضًا، ونُوجزُ ما توصَّلَ إليهِ من وظائفَ فرعيةٍ للغةِ بجانبِ تلك الاجتماعيةِ التَّواصليَّةِ، في الآتي:

- الوظيفةُ التَّعبيريَّةُ أو الانفعاليَّةُ

- الوظيفةُ الإيعازيَّةُ أو النِّدائيَّة
- الظيفةُ المرجعيَّةُ
- الوظيفةُ الاتِّصاليَّةُ
- الوظيفةُ ما فوقَ اللغويَّةِ
- الوظيفةُ الشِّعريَّةُ**[١١: ص٩١]**.

وهي وإن كانت – من وجهةِ نظرِ جاكبسون – تُمثِّلُ جذرَ الاستعمالِ البشريِّ للغةِ في مختلفِ البيئاتِ، وللاستدلالِ بِواحدةٍ من تلك الوظائفِ على طبيعةِ الخطابِ ومنحاهُ، ومن ثمَّ يتوجَّه على ذلك تعيينُ الإستراتيجيَّةُ الخطابيَّةُ الأنسبُ، فإنَّ الصُّدورَ عن آراءِ علماءِ العربِ في هذا الميدانِ تُحيلُ على ما يُشابهُ ذلك الرأيَ المحدِّدِ لوظائفِ اللغةِ، غيرَ أنَّ الفرقَ في جمعِ جاكبسون وربول لهذه الوظائفِ في مكانٍ واحدٍ تحتَ مفهومٍ معيَّنٍ، وتفرُّقِها في بطونِ كتبِ علماءِ العربِ وتحتَ تخصُّصاتٍ متباينةٍ، فمنهم مَن تناولَها تحتَ مظلةٍ من علومِ البلاغةِ، آخرونَ تعرَّضوا لوظائفِ اللغةِ في المطوَّلاتِ الأصوليَّةِ، وطائفةٌ ثالثةٌ أخذت في الحديثِ عنها في كتبِ علمِ اللغةِ، ومن نظائرِ ذلك الآتي:

١- وظائفُ اللُّغةِ عِندَ البلاغيِّين:

ومن البلاغيينَ ابنُ سنانِ الخفاجي، الذي نظرَ إلى اللغةِ بوصفِها ذاتَ وظيفةٍ تبليغيَّةٍ، فيقولُ: ومن شرطِ الفصاحةِ والبلاغةِ: أن يكونَ معنَى الكلامِ واضحًا ظاهرًا جليًّا، لا يحتاجُ إلى فكرٍ في استخراجِه وتأمُّلِ فهمِه...، والدَّليلُ على ذلك أنَّ الكلامَ غيرُ مقصودٍ في نفسِه، وإنَّما احتيجَ إليهِ ليُعبِّرَ النَّاسُ عن أغراضِهم، ويفهموا المعاني التي في نفوسِهم"**[١٢: ص٢٠٩]**، ولعلَّ الدكتور عبدِ الهادي الشّهري، قد عرّجَ في استنباطِ الحُكمِ بحصرِ ابنِ سنانِ الخفاجيِّ لوظائفِ الغةِ في تلكَ الّتي أشارَ إلَيهَا بالتّبليغيّةِ**[١٣: ص١٢]**، علَى قولِ ابنِ سنانِ: "ذلِكَ أنَّ الكلامَ غيرُ مَقصودٍ فِي نَفسِه"، وقد أغفلَ أنّ استعراضَ هذا النصِّ جاءَ في سياقِ الحديثِ عَن جماليّةِ النظِّم الشّعريِّ، ومِن ثمَّ فإنَّ في فهمِه لذلك قصورًا عن احتمالِ نظرةِ ابنِ سِنانٍ للوظيفةِ الجماليّةِ أيضًا.

كما يُفهَم أيضًا من كلامِ صاحبِ الصِّناعتينِ عن مفهومِ البلاغةِ، أنَّ الغرضَ القائمَ في نفسِ المتكلِّم تجاهَ استعمالِه للغةِ هو مجردَ الإبلاغِ، وليسَ ذلك بشيءٍ؛ لأنَّ الكلامَ مُضمَّنٌ غايةً أُخرَى تُفهَم من قولِه: "البلاغةُ من قولِهم: بلغتُ الغايةَ إذ انتهيتُ إليهَا...، والمبالغةُ في الشيءِ النتهاءُ إليهِ...، فَسُمِّيتُ البلاغةُ بلاغةً؛ لأنَّها تُنهي المعنَى إلى قلبِ السامعِ فيفهمُه"**[١٤: ص١٢]**، وقد راعَى أبو هلالٍ الفرقَ بينَ وظائفِ اللغةِ والكلامِ في تفرقتِه بينَ الفصاحةِ والبلاغةِ، فأعطَى اللغةَ خصوصيةً في الأداءِ الاستعنالِيِّ لها، بما ينطبقُ عليها

من سماتِ الفصاحةِ أو البلاغةِ أو هما معًا، فالوظيفةُ الجماليَّةُ (الشِّعريَّةُ) التَّأثيريَّةُ مدارُها حولَ البلاغةِ، أمَّا الصيغةُ التَّعبيريَّةُ التبليغيَّةُ، فمدارُها لديهِ حولَ الفصاحةِ**[١٤: ص١٤-١٥]**.

٢- وَظائِفُ اللُّغةِ عِندَ الأصوليّين:

وينطلقُ الأُصوليُّونَ في نظرتِهم إلَى اللغةِ ووظائِفِهَا، مِن ذلك الدّورِ الّذي تُؤدِّيه في فهمِ اللسانِ العربيِّ الذي بِه نزَل القرآنُ، ومَا انطوَى تحتَ خطابِه من الأحكامِ المُستمدَّةِ منهُ، وفي إطارِ الحديثِ عن حصرِ وظائفِ اللغةِ في مجردِ التبليغِ والإيصالِ، يقولُ الشَّاطبيُّ في معرضِ حديثِه عن طريقةِ عرضِ السَّلفِ الصَّالحِ لموادِّ الشّريعةِ على مَن وافقَها ومن خالفَها: "هذا، وإن كانَ راجعًا إلى نظمِ الأوَّلينَ في التَّحصيلِ، فمِن حيثُ كانوا يتحرَّون إيصالَ المقصودِ، لا من حيثُ احتذاءَ مَن تقدَّمَهم"**[١٥: ج١، ص٧٠-٧١]**، فكلامُه وإن كانَ نصًّا في حصرِ اللغةِ في وظيفتِها التوصيليةِ، إلَّا أنَّ فيهِ نظرًا؛ لأنَّه واردٌ في معرضِ التنصيصِ على طريقةِ بثِّ المشرِّعينَ الأوَلِ لموادِّ الشريعةِ في النَّاسِ وإعلامِهم بِها، وحيثُ كانت القضيَّةُ هنا مخصوصةً بسببٍ، لا يُمكنُ القولُ بحصرِ الشاطبيِّ لوظائفِ اللغةِ في التواصليةِ.

وإنَّ إسنادَ القولِ بانحصارِ اللغةِ في وظيفةِ الإيصالِ إلى الشَّاطبيِّ بناءً على هذا النصِّ السابقِ غيرُ آتٍ من أيِّ وجهٍ، وهو الذي نقلَ عن الإمامِ مالكٍ قولَه: "قُبضَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقد تمَّ هذا الأمرُ واستكملَ، فإنمَا ينبغي أن تُتَّبعَ آثارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولا يُتَّبعُ الرَّأيُ، فإنَّه متَى اتُّبعَ الرَّأيُ جاءَ رجلٌ آخرُ أقوَى في الرَّأي منكَ فاتَّبعَه، فأنتَ كلَّما جاءَ رجلٌ غلبكَ اتَّبعته، أرَى هذا لا يتمُّ"**[١٦: ج١، ص١٨١]** فهذا نصٌّ يُثبتُ للغةِ وظيفةً أخرَى سِوَى الّتي نصَّ عليهَا في الموافقاتِ، حيثُ يضمِّنُ استعمالَ قويِّ العقلِ لهَا حُجّةً يغلبُ بِها علَى غيرِه، وهذه الوظيفةُ قريبةٌ مِمّا نزلَها فيهِ أرسطوطاليس في كتابِ الخطابةِ، وهي الوظيفةُ الإقناعيّةُ.

المحورُ الثّالثُ: الوظائفُ الميتافزيقيّةُ للُّغةِ

تقدّم الحديثُ عَن الوظائفِ الّتي يستعملُ فيهَا النّاسُ اللُّغةَ، وهِي الوظائفُ الفزيقيّةُ للغةِ، أي أنَّها تأخذُ شكلًا طبيعيًّا لا اختلافَ بينَ الدّارسينَ عليهِ، إلَّا في جانبِ السّبقِ إلَى اكتشافِ هذه الوظائفِ، بينَ العربِ القُدامَى والدّرسِ اللّسانيِّ الحديثِ في الغربِ، وقد تأخَّر الكلامُ في وظيفةٍ هي الأهمُّ مِن وظائفِ اللغةِ؛ لخفائِها ولِمَا تنطوِي عليهِ مِن الإلباسِ، وإنَّما كانت خفيَّةً لِمُخالفتِها

قانونَ الظّهورِ الّي هو مِن أبرزِ قوانينِ اللُّغةِ المُنطوقةِ، فالحالُ أنّها قولٌ يَجمعُ بينَ طَرفَينِ: قائلٍ ومَقُولٍ لَهُ، وذلكَ مِن الظّهورِ بِمكانٍ لا يَخفَى علَى دارسٍ لاستعمالاتِ اللُّغةِ الوظيفيّةِ.

أمَّا أن تكونَ اللُّغةُ خاضعةً للمِيتافزيقا؛ فذلك مَا لَم يُعنَ بِدرسِه وتخصيصِ مباحثَ لهُ إلّا عددٌ يسيرٌ مِن العُلماءِ اللغويينَ في اللسّانيّاتِ المُعاصرةِ، وستتعرَّضُ الدّراسةُ في هذا الفصلِ إلَى الوظيفةِ المِيتافيزيقيّةِ لِلُّغةِ عبْرَ عددٍ مِن العَناصرِ الفرعيّةِ علَى نحوِ ما يَلِي:

- مفهومُ ميتافيزيقَا اللُّغةِ.
- وظائفُ اللُّغةِ المِيافيزيقيّةِ.
- مَا تُنتِجُه تلكَ الظَائفُ مِن معاييرِ قياسِ صِحّةِ اللُّغةِ، وجمالِيّتِها، وعلاقتِها بالتّواصلِ الإنسانيِّ.

أوَّلًا: مَفهومُ ميتافيزيقَا اللُّغةِ

يُجلِّي لنا تعريفُ بميتافيزيقا اللغةِ عن وظيفةٍ جديدةٍ، لا أقولُ جديدةً في الاستعمالِ، بل جديدةٌ من حيثُ التعرُّفُ عليها، والإلمامُ بماهيتِها ودَورِها في توجيهِ معاني المتكلِّمينَ بِها حيثُ تتطابقُ معَ ما يرغبُ المخاطبُ في الوصولِ إليهِ من دلالاتٍ، وقد عرَّفها الدكتور لطفي عبد البديع تعريفًا مضمونيًّا لا ينتمي إلى المفهوميَّةِ الاصطلاحيَّةِ بما تعنيهِ المفاهيمُ من إحاطةٍ بالمُعرَّفِ، في إطارِ حديثِه عن جوهرِ اللُّغةِ ومدَى ما يُمكنُ أن تُضفيهِ على الشِّعرِ من رونقٍ نابعٍ من فلسفةِ الشُّعراءِ الذَّاتيةِ، بقولِه: "ميتافيزقا اللغةِ: ظاهرةٌ لا تتَّسمُ بالتَّغيُّرِ، إذ التغيُّرُ ليسَ من شريعةِ الميتافيزيقا التي يُطلَقُ عليها الفلسفةُ الأُولَى أو العلمُ الأعلَى الذي ينظرُ في الوجودِ من حيثُ هو"**[١٧: ص٧]**.

وقد أرجعَ لدكتور عبد البديع، معرفةِ هذا النمطِ غيرِ التقليديِّ من اللغةِ إلى الفلسفةِ اليونانيةِ القديمةِ، ممثَّلةً في شخصِ أرسطو، فقال: "فما الذي بقيَ بعدَ ذلك للميتافيزيقا؟ بالطبعِ لم يكن الإطارُ المأخوذُ الذي وضعَه أرسطو من شأنِه أن يثبتَ على طولِ الزمانِ..، فهي منذُ أرسطو رأت نفسَها في الطريقِ الذي سلكته، وهو طريقُ البحثِ عن الوجودِ العامِّ"**[١٧: ص٨]**، ثمَّ إنَّه يمرُّ بعدَ ذلك بمراحلِ نموِّها على يدِ أفلاطون تلميذِ أرسطو، إلى أن يصلَ بِها إلى مرحلةِ اكتسابِ الملامحِ الحداثيَّةِ لها في قالبِها اللُّغويِّ الذي كساها بنيةً معرفيةً جديدةً على يدِ (هيدجر)، عبرَ سلسلةٍ من البحثِ في أصولِ اللغةِ من حيثُ هي لغةٌ، لا شيءٍ آخرَ قد تكونُ اكتسبتْه بفعلِ تداولِ النَّاسِ لها**[١٧: ص٨]**.

وقد انبنَى على تلكَ السِّماتِ التي أكسبتْها الميتافيزيقا للغةِ الاستعماليَّةِ، الحكمُ بأنَّ اللغةَ لا تُجاوزُ حقيقةَ اللفظِ الموضوعش بإزاءِ معنًى مُعيَّنٍ، وإلَّا كانَ تخطِّي اللفظِ للمعنَى الوضعيِّ في حاجةٍ إلى قرينةٍ يُطلَبُ بِها القائلونَ بتواردِ المجازِ على الألفاظِ، وقرينةٍ أُخرَى تُرشدُ إلى أنَّ اللغةَ منقسمةٌ لحقيقةٍ ومجاز**[١٧: ص١٠]**،وقد استدلَّ على أنَّ تقسيمَ اللغةِ باعتبارِها

المذكورِ الذي تُسفرُ عنهُ الدراساتُ الميتافيزيقيةُ، من حيثُ كونُها لغةً تُعبِّرُ عن مضامينَ يحتاجُ إليها الإنسانُ بالوضعِ، لا بالمجازِ، ليسَ يردُ أن تُقسَّم إلى حقيقةٍ ومجازٍ، بما ذهبَ إليهِ ابنُ القيمِ من تعطيلِ المجازِ وعدمِ الالتفاتِ إليهِ، وبخلوِّ كتبِ الإمامِ الشَّافعيِّ من الحديثِ عن المجازِ[١٧: ص١١].

ومِمّا لا شكَّ فيهِ أنَّ الدّكتور عبد البديع قد وقعَ في مزلقٍ خطرٍ؛ نتيجةَ تأثُّرِه بفلسفةِ الكونِ والوجودِ المِيتافيزيقيّةِ الأفلاطونيّةِ، فاعتمدَ على بعضِ نتاجاتِ كلٍّ مِن ابنِ القيِّمِ والإمامِ الشّافعيِّ، دونَ استقصاءٍ، وبمُقارنةِ قولِه هذا بِما جاءَ في كتابِ الفوائدِ المشوقِ إلى علوم القرآنِ وعلمِ البيانِ، سيقفُ بأدنَى نظرٍ على أنَّ الإمامَ بنَ القيِّمِ لم يُنكر المجازَ في اللِّسانِ العربيِّ مُطلقًا، وهو القائلُ: "فكم في لفظِه من إيجازٍ يُسفِّه حلمَ من يقولُ بلفظِه، وكم في معناهُ مُغنٍ للجادِّ في حفظِه، أبدعَتْ في أنواعِ البديعِ كلماتُه، وأغربت في أجناسِ التَّجنيسِ سُورُه وآياتُه"[١٨: ص٣]، وبذلك يتحلَّل مضمونُ الخطابِ عن ميتفيزيقا اللغةِ والتزامِ وجهةٍ واحدةٍ فيها، من وحدةِ الرأيِ والحُكمِ المطلقِ عليها بأنَّها واحدةٌ من عناصرِ الوجودِ الذي يُنظرُ فيهِ لذاتِه لا لِما ينطبقُ عليهِ من أحكامٍ خارجيَّةٍ – بحسبِ نظرةِ الميتافيزيقيين.

فمِمَّا لا بُدَّ منهُ من التعاملِ معَ اللغةِ بوصفِها كائنًا حيًّا يتحرَّرُ من قيودِ الزمنِ متَّخذًا أشكالًا عدَّةً عبرَ مراحلَ من النماءِ والتطورِ والاكتمالِ في دورةٍ زمنيةٍ تتخلَّلُها أحوالٌ متغايرةٌ توجيبُ على اللغةِ التحرُّرَ من قيدِ الجمودِ اللحظيِّ الذي تكتسبُه في فترةٍ ما نتيجةَ فتورِ أهلِها عن استعمالِ بعضِ تراكيبِها أو ألفاظِها، لِما في القولِ باتِّخاذِ اللغةِ شكلًا ثابتًا، من الموانعِ التي تحولُ دونَ اتِّصالِ اللغةِ المباشرِ بالفكرِ والثقافةِ المجتمعيةِ، وقد قرَّرت الدراساتُ أنَّ تلك العلاقةَ قائمةٌ، فـ"العلاقةُ بينَ اللغةِ والتفكيرِ والثقافةِ كانت موضوعًا لبحثٍ عميقٍ منذ أوائلِ القرنِ العشرين، وقد قدَّم العلماءُ نظرياتٍ مخلفةً لتفسيرِ تلك العلاقة ورسمِ حدودِها"[١٩: ص٢٠٨].

ثَانيًا: وظائفُ اللُّغةِ المِيتافيزيقيّةِ

مما لا يستطيعُ الدرسُ المعاصرُ حولَ ميتافيزيقا اللغةِ أنَّها أضفت على اللغةِ الاستعماليةِ جانبًا من الجمودِ، وأرخت عليها أسدالًا تعيقُ فهم مرامي المتكلِّمِ، وقد عقدَ لها فلاسفةُ (فيينَّا) نظرياتٍ تُبطلُ ما جاءت به، ووصفوا مشكلاتِ الميتافيزيقا اللغويةِ بأنَّها زائفةٌ، وتفتقدُ لأدنَى درجاتِ الحضورِ في الشّقِ الاستعماليِّ الوظيفيِّ لها، وأنَّها لا تعدو أن تكونَ مرضً من أمراضِ اللغةِ؛ من حيثُ كانت تبحثُ في الوجودِ الأوَّلِ للغاتِ، والعباراتِ والتراكيبِ التي لم تعد تُستعملُ[١٧: ص٩]، على أنَّ الدكتور عبد البديع لم يزل يقفُ

بجانبِ هذا الاتِّجاهِ ويتبنّى فكرةَ التأثيرِ الإيجابيِّ لدراسةِ ميتافيزيقا اللغةِ بوصفِها ذاتَ أثرٍ فاعلٍ في معرفةِ الأصولِ التي انبثقت عنها اللغاتُ، ولعلَّه قد وافقَ الصوابَ في ذلك الجانبِ، غيرَ أنَّ تخطيه لهُ بوضعِ حدودٍ لعملِ ميتافيزيقا اللغةِ الوظيفيِّ، وعملِها التاريخيِّ، لا ينمُّ عن شيءٍ ذي بالٍ في هذا الميدانِ.

وظائفُ اللُّغةِ لميتافيزيقيةُ، ذلك ما يصدرُ عنه الدكتور شكري عياد، تحتَ ما عنونَ له بـ"الأسلوبِ بينَ علمِ اللُّغةِ وفنِّ الأدب"، حيثُ يُراعي عددًا من الوظائفِ الاستعماليةِ للغةِ الخطابِ، منطلقًا من تشابكِ اللغةِ معَ نسيجِ الحياةِ الاجتماعيةِ، فصلًا بينَ اهتماماتِ بعضِ العلماءِ باللُّغةِ في صعيدِها التاريخيِّ الميتافيزقيِّ، وما تأثَّرَت به اللغةُ من نتاجاتٍ متداخلةٍ معَ علومٍ أخرَى، كعلمِ اجتماعِ اللغةِ، وعلمِ نفسِ اللغةِ، كاشفًا بذلك اللِّثامَ عن حقيقةِ العلاقةِ التي تربط بينَ وظائفِ اللغةِ التي منها تلك الآصرةُ التي تصِلُ اللغةَ بالأدبِ، وبينَ ما تنتِجُه الدراساتُ الفلسفيةُ عن اللغةِ، ومنها الدراساتُ الميتافيزيقية من مؤثِّراتٍ تتعارضُ معَ الممعنَى اللغويِّ الأسلوبي**[٢٠: ص٣٩]**، إلى أن يصلَ بنا إلى أنَّ جماعةً من "علماءِ اللغةِ أرادوا أن يبتعدوا دراسةِ الأدبِ على اعتبارِ أنَّه تشكيلٌ فنيٌّ يخرجُ عن الاستعمالتِ الطبيعيةِ للأدبِ، ولكنَّهم اضطرُّوا – معَ ذلك – أن يجعلوا لدراسةِ الأسلوبِ الأدبيِّ مكانًا شاغرًا في مُخطَّطِهم للدراساتِ اللغويَّةِ"**[٢٠: ص٣٩]**.

وهنا يُوقِفُنا الدّكتور شكري عيّاد علَى أنَّ للغةِ وظائفَ حرصَ اللغويون علَى إبعادِها عَن الأدبِ، باعتبارِ عدمِ تناسبيّةِ الدّرسِ اللغويِّ معَها، ولعلَّهم اجتنبوا الجمعَ بينَ اللغةِ والأدبِ؛ لِاعتبارِ أنّ الأدبَ يحتاجُ إلَى مُزاولةِ المعانِي المجازيّةِ، ولِنظرتِهم إلَى تاريخِ وفلسفةِ اللغةِ الّتي تُجانبُ النّظرَ إلَى اللغةِ بِوصفِها شيئًا قابلًا للتحوُّلِ مِن الفيزيقا إلَى الميتافيزيقَا، حملَهم علَى النزوعِ عَن المزجِ بينَ الدّرسِ اللغويِّ والدّرسِ النّقديِّ والأدبيِّ الإبداعيِّ.

ثالثًا: مَا تُنتِجُه تلكَ الوظَائفُ مِن معاييرِ قياسِ صِحّةِ اللُّغةِ، وجماليّتِها، وعلاقتِها بالتّواصلِ الإنسانيِّ.

تُشكِّلُ المفاهيميّةُ الميتافيزيقيّةُ، مُستوًى مِن مستوياتِ الوظيفةِ المعياريّةِ للغةِ القائمةِ علَى الاستعمالِ الإنسانيِّ لهَا في مناحيَ مُختلفةٍ، مِن أبرزِها في نظرِ أرسطو، ذلكَ المعيارِ المُرتكزِ علَى المُحاكاةِ، ونتمثَّل ذلك بقولِه في كتابِ (في الشِّعر): "إنَّا متكلِّمونَ في صَنعةِ الشِّعرِ في ذاتِها، وأيِّ قوَّةٍ في كلِّ نوعٍ من أنواعِها...، وكذلك نتكلَّم في كلِّ ما يتَّصلُ بهذا المبحثِ، مبتدئين في ذلك كلِّه – وفقًا للطبيعةِ – من المبادئِ الأُولَى"**[٢١: ص٢٨]**، فهوهنا يعتدُّ بالشعرِ وبالقوَّةِ التي تُنتِجُه ولغتِه التي يُبنَى منها، ويضعُ نصبَ عينيهِ الطبيعةَ الأولَى التي يعودُ إليها تكوينُه ووظائفُه الميتافيزيقية التي يُؤدِّيها، والتي استنجَها البحثُ من تقييدِ

أرسطو لكلامِه عن الشّعرِ بقولِه : "وفقًا للطبيعةِ من المبادئِ الأولَى"، فالطبيعةُ التي يعنيها عناصرُ تكوينُه اللغويةُ التي ترجعُ إلى الطبيعةِ اللغويةِ الاستعماليةِ في وجودِها الأوَّلِ، والتي يُعبِّرُ عنها بمعيارِ المحاكاةِ، الذي جعلَ منهُ أساسًا في إنتاجِ الشّعرِ، بقولِه: "كلُّ تلك بوجهٍ عامٍّ أنواعُ المحاكاةُ، ويفترقُ بعضُها عن بعضٍ على ثلاثةِ أنحاءٍ، إمَّا باختلافِ ما يُحاكي به، وإمَّا باختلافِ ما يُحاكَى، أو باختلافِ طريقةِ المحاكاةِ"**[٢١: ص٢٨]**، وانطلاقًا من ذلك فإنَّ حديثَه عن الشّعرِ وقيمتِه في المحاكاةِ قائمٌ على الوظيفةُ التي تؤدِّيها لغةُ الشعرِ في إطارٍ من المشابهةِ التي تعكسُ جماليةَ هذه اللغةِ من ناحيةٍ وأدائِها الإيقاعيِّ من ناحيةٍ أخرَى، واختلافِ صورتِها من المجازِ عن الوضعِ من ناحيةٍ ثالثةٍ.

وفي الصددِ ذاتِه ينطلقُ أفلاطون من نظريةِ أستاذِه معبرًا عن تلك الوظائفِ الجماليةِ التي تغايرُ ما عليهِ الجمودُ اللغويُّ المعبَّرُ عنه بالميتافيزيقا، ليقفَ بنا على أنَّ "المطابقةَ الفنيةَ للغةِ الشعرِ تختلفُ عن "الطبيعةِ" التي تمثِّلها اللغة..، وأنَّ هذا الاختلافَ متوقِّفٌ على المستوى الذي تتعلقُ به اللغةُ، فالوجهةُ الميتافيزيقيةُ للعملِ الفنيِّ تُعتبرُ طبيعةً ثانيةً تؤديها اللغةُ، تُجلِّي عن أصلٍ وصورة"**[٢٢: ص١٦٢]**، علَى أنّ ذلكَ لنصَّ يُحيلُ علَى أنَّ اللغةَ لهَا مُرتكزانِ في الاستعمالِ، الأوّلُ ما ليسَ للشّعراءِ فيهِ باعٌ، وهو عبارةٌ عَن اللغةِ الّتي ينطلقُ فيهَا المُتكلِّمُ مِن مُجرّدِ رغبتِه في التّعبيرِ عن ذاتِه، وذلك أحدُ أصولُ الميتافيزيقا، والثّاني، والذي تُمثِّلُه لغةُ الشّعرِ المُتجاوزةُ لأحيازِ الجمودِ التّعبيريِّ لعوالمِ الشّعراءِ الجماليّةِ والإيقاعيّةِ التي تحملُ دلالاتٍ تتجاوزُ حدودَ المنطقِ إلَى مُحاكاةِ الصورةِ الماديّةِ في هيئاتٍ غيرِ ماديّةٍ.

الخاتمة

وفي نِهايةِ البحثِ، ينبغي الإلماعُ بِأهمِّ مَا جاءَ فيهِ مِن نتائجَ، والإشارةُ إلَى تضمَنهُ مِن مُهمِاتٍ، علَى نحوِ ما يلِي:

- أنّ اللُّغةَ عبارةٌ عَن أصواتٍ يُعبِّرُ بِهَا كلُّ قومٍ عَن أغراضِهم، ومِن ثمَّ فإنَّ للغةِ اتّصالًا شديدًا بالصّويتِ الذي يُصدرُه الإنسانُ عبرَ نبراتٍ مُتعددةٍ ومتباينةٍ تحدُّ طبيعةَ الغرضِ الذي يُوظِّفُ فيهِ تلكَ الأصوات.

- أنَّ اللغةِ ظاهرةٌ إنسانيّةٌ تتفشَّى في الجنسِ البشريِّ كلِّه دونَ استثناءٍ، إلّا لعَرضٍ يمنعُ مِن التّعبيرِ بِهَا أو مرضٍ مُلازمٍ.

- أنّ حاجةَ الإنسانِ إلَى ما يتوصّلُ بِه إلَى تلبيةِ أغراضِه جعلَت مِن اللغةِ أهمَّ الظواهرِ الإنسانيّةِ.

- تمثُّعُ اللغةِ في صعيدِها التّواصليِّ بِالنّزعةِ الاجتماعيّةِ الّتي زادت مِن فاعليةِ العُلماءِ في ميدانِ الدرسِ اللغويِّ؛ لإنتاجِ دراساتٍ وبحوثٍ حولَ وظائفِها.

- تُعَدُّ اللغةُ آليّةٌ مِن آليّاتِ التّواصلِ البَشريِّ، تجمعُ بينَ عددٍ الوظائفِ تُؤدِّي الأغراضَ الّتي يحتاجُ الإنسانُ إلَى أدائِها.

- عدمُ تعارضِ وظائفِ اللغةِ المُتعددةِ معَ بعضِها؛ لِأنَّها تتكاملُ فيمَا بينَها لفي سبيلِ الإبانةِ عَن الأغراضِ الموظّفةِ لَها.

- تُعدُّ ميتافيزيقَا اللُّغةِ نمطًا مِن أنماطِ الوظيفيّةِ المُتوخّاةِ في معرفةِ تاريخيّةِ اللُّغةِ، ومدعاةِ التّعاملِ الإنسانيِّ بِها.

- تستهدفُ ميتفيزيقَا اللُّغةِ جانبًا مهمًّا مِن جوانبِ الاستعمالِ اللغويِّ، مُتمثِّلًا في تفصيلِ الفروقِ بينَ لُغةِ الحقيقةِ ولُغةِ المُحاكاةِ الجماليّةِ.

مصادر البحث ومراجعه:

- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تح: د. الشربيني شريدة، ، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧ .

- المعنى اللغوي (دراسة عربية مؤصلة نظريًا وتطبيقيًّا) د. محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٩.

- وظائف اللغة، هاليداي، تر: د. محمود أحمد نحلة، منشور بمجلة اللسان العربي التابعة لجامعة الدول العربية، عد:٥٤، ٢٠٠٢.

- الإحكام في أصول الأحكامِ، سيف الدين ابن الحسن علي بن محمد الآمدي، ، دار الكتب الخديوية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩١٤.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، بدون سنة نشر.

- الخطابة، أرسطوطاليس، تلخيص وشرح: أبي علي بن سينا، تح: د. محمد سليم سالم، ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، عد١٨٠، ٢٠٠٩.

- في علم اجتماع اللغة، د. مصطفى صلاح قطب، ص٢-٣، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٣.

- في علم اللغة الاجتماعي، د. مصطفى صلاح قطب.

- إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ط١، ٢٠٠٣ .

- للحديثِ عن مُجملِ تلك الوظائفِ، وتفصيلاتِها: التواصل اللغوي ووظائف اللغة، رومان جاكبسون، ضمنَ كتاب: الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ميشال زكريا، ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥.

- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تح: د. علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٩٤

- الصناعتان (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، وآخرين، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٧١.

- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق ابن إبراهيم الشاطبي، تح: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط١، ٢٠٠٦.

- الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن، مكتبة التوحيد، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٥.

- ميتافيزيقا اللغة، د. لطفي عبد البديع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٦.

- الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تح: محمد بدر النعماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠.

- البلاغة والتواصل عبر الثقافات، د. عياد عبد اللطيف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عد:٢٠٨، ٢٠١٢.

- اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربي)، د. شكري محمد عياد ، ببلك إنترناشونال، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٨.

- في الشعر، أرسطوطاليس، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي، تح: شكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٣.

- الأصول الجمالية للفن الحديث(تحليل مفصل عن أثر الفلسفة الجمالية القديمة في الاتجاهات الفنية الحديثة)، د. حسن محمد حسن ، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١١.